دراما عباءة الخبير

من التلقي إلى الإنتاج

رائدة حسن

تعتمد تجربة المعلمة على فكرة ربط الدراما بالمنهاج التعليمي عبر أسلوب «عباءة الخبير» المعروف في الدراما في التعليم، حيث ترمي التجربة إلى تمكين الطلاب من تحضير مسودة كتيب عن المعالم التاريخية لمدينة الناصرة، من خلال «موقعتهم» في الدراما كخبراء في تصميم الكتيبات. من خلال التجربة، نرى أن الطلاب عندما ينتجون الفكرة، ويتخذون قراراً سيكونون مسؤولين عن تعلمهم وتطويره.

لا أعتقد أن تشخيص العملية التعليمية –من حيث كونها تقليديّة أو بدائليّة– مهم إلا بمرجعيّة نوعية المنتج التعليمي. والتغير الذي يحدثه في ذات المتعلم. وما أقصده هنا أن هنالك مسافة بين الأطروحة والممارسة قد تكون في أقصى حدودها متناقضة، وفي أدناها متناغمة؛ أي يمكن أن تقدم تعليماً بديلاً في إطار أطروحة تقليدية والعكس صحيح أيضاً.

فبالنسبة لي شخصياً، ولوقت طويل، كنت أستشعر بداخلي نزعة عارمة للتعليم تكبتها معاشرتي له منذ كوني طالبة إلى أن أصبحت مستشارة تربويّة، فعندما أنظر إلى العملية التعليمية تستوقفني جملة من المعايير التي أبني عليها مقاييسي للنجاح والفشل: المعرفة، فهل المعرفة في العملية التعليمية ملقنة أم مختبرة؟ موضعة أم مذوتة؟ مستذكرة أم ممارسة ومتأملة؟

المنتج، فهل المنتج الذي نحصل علية من العملية التعليمية هو ما يريد المعلم تحقيقه أم ما يسعى الطلاب إلى تحقيقه؟ وبالتالي هل يقاس المنتج التعليمي بمعايير الكفاءات والعلامات فحسب أم بمعايير حسيّة ترتكز على مشاعر وأحاسيس ذات المتعلم.

وعندما نتحدث عن المتغيرات في ذات المتعلم، وما يكتسبه من العملية التعليمية، فهل هو آني أم أن له تأثيرات طويلة الأمد وتشمل قطاعات الحياة وجوانبها المختلفة.

فعلى سبيل المثال عندما نتحدث عن المعالم التاريخية في الناصرة لطلاب في الصف العاشر، نميل إلى الاعتقاد أن ما تعرضوا له عبر مبحثي التاريخ والجغرافيا قد أكسبهم معرفة كافية عن المكان الذي يعيشون فيه بفعل كونه مكان عيشهم وسياقه، بالإضافة لأهميته التاريخية والجغرافية، لكن ما يحدث ومن اللحظات الأولى للعملية التي تتطلب منهم استخداماً فاعلاً لتلك المعارف المفترضة يتكشف أنها غير قابلة للاستخدام، هذا إذا كانت لا تزال مستذكرة، وذلك ببساطة لأن الغرض أو الغاية التي تمت برمجة هذا النوع من التعليم عليها هي غاية استرجاعية مؤقتة، حيث يكون الطالب وعاء تسكب فيه معارف ومعلومات، ويقوم هو بدوره بسكبها في ورقة الاختبار، وبالتالي تنتهي هذه المعرفة غير المذوّتة وغير الممارسة.

إن تجربتي التي أقدمها هنا تعتمد على فكرة ربط الدراما بالمنهاج التعليمي عبر أسلوب «عباءة الخبير» المعروف في الدراما في التعليم، حيث ترمي التجربة إلى تمكين طلابي من تحضير مسودة كتيب عن المعالم التاريخية لمدينة الناصرة، من خلال «موقعتهم» في الدراما كخبراء في تصميم الكتيبات، فمن خلال هذا الأسلوب نرى أن الطلاب عندما ينتجون الفكرة ويتخذون قراراً سيكونون مسؤولين عن تعلمهم وتطويره.

التجربة نفذت مع طلاب من الصف العاشر في مدرسة «الجليل الثانوية البلدية – الناصرة»، ضمن حصص المهارات الحياتية والمجتمع المدني، على مدار 3 أسابيع بمعدل ساعتين في الأسبوع.

الهدف الرئيسي

أن يتبنى الطلاب خبراتهم في استكشاف وبحث المعالم التاريخية في الناصرة أثناء عملية تصميم منتج ترويجي.

أهداف أخرى

- تحويل الطالب من متلقٍّ إلى منتج للمعرفة.
- معالجة المعرفة التاريخية والجغرافية في إطار فني وتصميمي.
- مقاربة التعليم كجزء من صناعة الانتماء والهوية.
- تخفيف حدة التنافس وتعزيز روح التشارك.

يرتكز أسلوب «عباءة الخبير» في تجربتي على سلسلة من الخطوات الأساسية لموقعة الطلاب كخبراء في التصميم والانطلاق للعمل في المشروع، حيث تدفع هذه الخطوات الطلاب إلى عالم من الخيال الذي يجعلهم يرتفعون خارج حدود خبرتهم، ليفكروا وينطلقوا للبحث والاكتشاف بأنفسهم. تعتمد الخطوات على فكرة عمل الخبراء في مؤسسة دعاية وإعلان معروفة بكفاءتها وخبرتها في المجال، وهذه المؤسسة تقدم الخدمات للزبائن. وفي تجربتنا، على هذه المؤسسة مهمة تصميم كتيب عن المعالم التاريخية في الناصرة لجمعية الناصرة للثقافة والسياحة التي تهدف بدورها إلى تعريف الزائرين من المناطق المختلفة بأهمية الناصرة كبلد تاريخي.

العمل في هذا الإطار مبني على فكرة الاجتماعات، والعمل ضمن مجموعات وأطقم مهنية، للوصول إلى الهدف. أما الخطوات، فهي:

1. تمهيد للعمل: إدارة نقاش حول الكتيبات والمطبوعات المختلفة، تجربتهم وتواصلهم مع هذه الكتيبات وتأثير تصميمها وطريقة عرض المحتوى على رغبتهم في القراءة واكتشاف المضمون.
2. البداية؛ الاسم والشعار: في الاجتماع الأول أخبرت الطلاب بأننا سنعمل في مؤسسة دعاية وإعلان، وهذه المؤسسة تنتج الكتيبات المختلفة، وسنعمل على اختيار اسم وشعار لهذه المؤسسة. قام الطلاب بالعمل ضمن مجموعات من 5–6 أعضاء.
3. عرض تصاميم الاسم والشعار أمام المجموعات، والتصويت على اسم للمؤسسة، تم اختيار اسم المؤسسة «المدى».
4. تصميم مكاتب مؤسسة «مدى» على الورق، وعرضها أمام المجموعة: قام الطلاب بالعمل على تصميم مكاتبهم ووضع كل ما يلزمهم في هذه المكاتب كعاملين في هذه المؤسسة. عرض التصاميم أمام المجموعة وإدارة نقاش حول التصاميم.
5. تصميم مكاتب المؤسسة على الأرض، قام الطلاب بالعمل على تصميم مكاتبهم وبنائها على الأرض، ووضع كل ما يلزمهم فيها. بدأ الطلاب بالتفاعل والعمل في المكاتب والمرور في الممرات دون قطع اللاصق أو المرور فوقه.
6. الاجتماع الرسمي الأول: أثناء عمل الطلاب في مكاتبهم، جهزت في غرفة أخرى قاعة اجتماعات، ثم دعوتهم إلى الاجتماع الأول، حيث تم فيه:
   - تعريفهم على نفسي كمساعدة إدارية في هذه المؤسسة. تعاملت معهم كخبراء في إنتاج الكتيبات، وأنني شاهدت الكثير من أعمالهم التي أنتجوها، وأنني سعيدة بالعمل مع هذه النخبة. سألتهم عن المكاتب ودرجة رضاهم عنها، وهل هناك مشاكل يحبون طرحها لمعالجتها. ثم حددت لهم المهمة الأولى لهم كعاملين في المؤسسة.
   - إخبارهم بالمهمة الأولى لهم في مكاتبهم الجديدة، وبعد الانتقال من مقر المؤسسة القديم، وهي وصول رسالة من جمعية الناصرة للثقافة والسياحة، وزعت عليهم الرسالة وقرأتها لهم.
   - سؤالهم عن رأيهم: هل يوافقون على إتمام هذا المشروع؟ شددت على قناعتي بأن خبرتهم كبيرة في هذا المجال، وأنهم يستطيعون فعل ذالك، وافق الجميع بالإجماع على عمل المشروع. طلبت من المجموعات الذهاب إلى مكاتبهم لمناقشة المشروع ووضع الخطوات الأولى لتصميم الكتيب.
7. عقد اجتماعات ومباشرة العمل بمجموعات. اجتماع ومناقشة تنفيذ المهام في المجموعات.
8. تحضير مسودة الكتيب.

إن تنفيذ الخطوات في أسلوب «عباءة الخبير» يسير في مسارين في آن واحد، حيث كنت أنتقل من خطوة إلى أخرى حسب تخطيط وضعته، وكنت بذلك أقود طلابي باتجاه تنفيذ المهمة، ولكن في المقابل كنت أدفع طلابي إلى مسار يتخطون به التخطيط للوصول إلى أهداف إضافية حسب قدراتهم. فعلى سبيل المثال، في أحد الاجتماعات لفحص المهام في المجموعات لتحضير خطة العمل للكتب، قرر الطلاب إعداد شرائح عرض محوسبة، إضافة إلى الكتيب من منطلق أن الفكرة تساهم في إنجاح الهدف، وبخاصة أن لديهم الخبرة الكافية في هذا المجال. في اجتماع آخر، يتحدث أحد الطلاب عن استيائه من فكرة عدم وجود كتيب عن المعالم التاريخية في الناصرة لدى زيارته إلي جمعية الناصرة للثقافة والسياحة، ما أشعرة بالتحدي والمسؤولية والإيمان بأهمية تحضير كتيب باللغة العربية.

عبر تجربتي مع «عباءة الخبير» تحررت من فكرة أن أعلم، بل سيطرت علي فكرة صناعة سياقات للاستكشاف والتعلم، فعند دخولي معهم إلى هذا العالم وغيابي كمعلمة، يظهر الاستعداد الفردي لدى الطلاب والرغبة في المعرفة والبحث وفحص جميع الإمكانيات، فمثلاً مما اكتشفه الطلاب في التجربة، كما قالت إحدى الطالبات: إنها لم تكن ملمة بالمعالم التاريخية في الناصرة، وإنها لم تكن تميز بين المعلم التاريخي والمعلم الديني، ما أوقد لديها شعلة الفضول لدرجة التباحث مع أهلها، لتكتشف أيضاً أن أهلها تنقصهم تلك المعرفة والإلمام. وهذا النوع من الفضول الذي يرويه البحث والاستكشاف لم يقدهم لمعرفة أسماء المواقع وإحداثيات وجودها ووقائعها التاريخية فحسب، بل أدى بهم لاستكشاف النسيج السردي لحياة تلك الأمكنة. فتتحدث طالبة عن أنها، خلال عملية البحث عن المعالم التاريخية في الناصرة، اكتشفت قصصاً عن المكان تربطها بالتراث والعادات، ما عزّز لديها روح الانتماء لهذه الأمكنة والمسؤولية اتجاهها.

لا بد أن أشير هنا إلى دور وفاعلية الخيال لدى طلابي في هذه التجربة، فمن خلال تجربتي بالعمل في هذا الأسلوب مع المراحل العمرية المختلفة، شعرت في البداية أن طلاب المراحل الابتدائية ينخرطون بالدور بصورة أسرع، ولكن مع هذا الجيل شعرت أن الأمر ليس سهلاً في البداية، بل انتابني بعض التوتر والقلق من إمكانية عدم دخولهم وانخراطهم في العملية . . . لكن هذا الشعور تبدد تدريجياً، وبخاصة بعد مهمة تصميم المكاتب على أرض الواقع، حيث تفاعل الطلاب معي ومع دوري كزميل إداري لهم ينتقل من مكتب إلى آخر. تقول إحدى الطالبات بفرحة بعد انتهاء هذا النشاط: «عندما كنا صغاراً لعبنا «بيت بيوت»، أما الآن فكنا نقوم بـ مكتب مكاتب» . . ما أريد قولة هنا إنه عند دخول هؤلاء الطلاب إلى عالم الخيال وتفاعلهم مع أدوارهم المعطاة تكون النتيجة مجدية. هم يعرفون أنهم يدخلون إلى عالم القصة الخيالية ولكنهم يفهمون القوة التي يمتلكونها داخل تلك القصة للتوجيه والإقرار. وبالتالي يكبرون في الخبرة لإتمام المشروع حتى لو لم يكن حقيقياً. فعند إعطاء المهمة الرسمية الأولى كخبراء في التصميم، شدد الطلاب على قدرتهم في تنفيذ المهمة، يقول أحد الطلاب عند سؤالي لهم في الدور عن قبول عرض الجمعية: «بالتأكيد سننفذ هذه المهمة وبأعلى جودة، لو لم نكن بهذه الكفاءة لما طلبوا التعاون معنا». ونرى إن انخراطهم في الدور ولد لديهم روح التحدي والرغبة في التنفيذ.

إذا نظرنا إلى التجربة في بعد آخر، نرى أن المشروع الحقيقي ليس بذي أهمية بمقابل ما يكتسبه الطلاب من معرفة وتعزيز لمهاراتهم ومفاهيمهم الحياتية المختلفة، فعند الحديث عن المكاتب ومدى رضاهم عنها، يتطرقون إلى مساحة المكتب، ملاءمة المبنى لجميع فئات المجتمع، مواقف السيارات، الإنترنت، العمل مع شركاء في المكتب نفسه، وغيرها. هذا النوع من الحديث يؤدي إلى تغيير في المضمون، وإدراك شيء جديد ومتجدد، وبالتالي تحسن في مهارات الحياة. وعندما أقوم بطرح المهام للطلاب، فإنهم يعملون معظم الوقت في مجموعات صغيرة تجتمع بين حين وآخر، لاتخاذ قرارات بشأن سياسة ما، أو توحيد عمل معين.

تقول إحدى الطالبات عن عملية اختيار الاسم للمؤسسة: «لم

تكن العملية سهلة، خرجت أسماء عدة مع مضامين عدة، واجهنا صعوبة في اختيار اسم لمؤسستنا، ولكننا حرصنا على اختيار أكثر اسم مناسب يعكس فكرنا وطموحنا في هذه المؤسسة».

من جهة، أقيم مستوى المهارة، نوع المعرفة والصحة الاجتماعية للصف، ومن جهة أخرى أسعى لجعل الطلاب يدركون أهمية أن تكون المسؤولية الناشئة عن خبرتهم جزءاً من نظام قيمي، ففي حديث جانبي مع إحدى الطالبات عن علاقتها بالصف قبل التجربة وبعدها، تحدثت عن التغيير الذي حدث لها في علاقتها مع أقرانها وقدرتها على التكيف مع أنواع السلوك والمواقف داخل الصف: «بنيت علاقات جديدة مع طلاب صفي، وزادت ثقتي بنفسي، لقد حملت الكاميرا ونزلت إلى الشارع مع رفاقي، وأجرينا مقابلات لأننا أردنا أن ننجح في إتمام المشروع». فهي تتحدث عن: الإصغاء، التعاون، الثقة بالنفس، الالتزام، المشاركة والمسؤولية، وهي مهارات اكتسبها الطلاب عندما تجاوزوا المهارات المحددة ومجالات التعلم.

في تجربتنا، بدأنا بالعمل عن المعالم التاريخية في الناصرة من خلال تصميم كتيب، ولكن المشروع قادنا إلى اللغة والأدب، المعلوماتية، الموسيقى. فإطار «عباءة الخبير» يؤثر بشكل أساسي على مسؤولية الطلاب في علاقتهم بالمعرفة، فهم لا يستطيعون أن يكونوا مجرد مستقبلين للمعرفة، هذه المسؤولية ليست لتزويد نفسها بالمعرفة، مع أنها وللمفارقة هي ما يكتسبه الطلاب بشكل غير مباشر، ولكن للمشروع الذي تكلفوا به.

(دور المعلم: زميل موجة، يوضح مهام، يحرك مجموعات، يلخص، يكشف أفكار، يعمق الانخراط، ينقل الخبرات بين المجموعات، يلتقط المبادرات).

(دور الطالب: من متلقٍّ للمعلومة إلى فاعل وباحث عنها، يجرب، يعرض، يصمم، يناقش يبادر، يتقاسم المعرفة بروح الشراكة والزمالة، يقنع، يحاور).

لا شك في أن ما أطرحة في هذه التجربة يحتاج إلى معرفة مسبقة وإلمام بأهمية كل خطوة من الخطوات وكيفية التعامل مع المتعلم كشريك فاعل في هذه الخطوات، لا يوجد ما هو مخطط سلفاً للمعارف والمهارات التي يكتسبها الطلاب، وإنما تحديد لمجموعة مهام ومباحث على صلة بالمنهاج، يتم تداولها وممارستها بمستويات متفاوتة تحددها عناصر عدة منها: المهمة، ذاتية المتعلم وخبراته، الصحة الاجتماعية للمجموعة، قدرتها على الانزياح من التنافس إلى تعليم الأقران.

وفي النهاية، من تجربتي هذه، أرى أن أسلوب «عباءة الخبير» هو طريقة تعليم يكون في مركزها المتعلم، يبني المعرفة ويستخدمها من خلال مشهد تعليمي ذي مغزى.

رائدة حسن
المدرسة الثانوية البلدية – الناصرة